وشروحَه للمنطق الأرسطيّ؛ ولنتذكّرْ ترجماتِ ابن رشد، التي شكّلتْ ركيزةً لمفاهيمَ جديدةٍ في أوروبا، وألهمتْ دانتي في كتابه حول المَلَكِيَّة في القرن الرابع عشر. ولنتذكّرْ حيّ بن يقظان لابن طُفَيْل، التي كانت أساسًا لرواية روبنسون كروزو (عن العقل وإمكانيّاته المعرفيّة).

الخطر يكمن في أن تتحوّل البنى الفكريّة الحرّة إلى أداةٍ تُسْتَخْدَم خارج سياق وظيفتها الأساسيّة. وهذا ما أدّى إلى اختلالات في مسار تطبيق الأنظمة العلمانيّة.

ولكنْ، في هذا السياق، يُطْرَحُ السؤالُ الآتي: لماذا أَنتجتْ هذه الأفكارُ في أوروبا مفهومًا للدولة تكرَّسَ في الجمهوريّة العلمانيّة، ولم يحصلْ ذلك في مراحلَ مبكّرةٍ في عالمنا العربيّ الإسلاميّ؟

الإجابة في جزءٍ منها تكمن في أنّ الثورة الصناعيّة، والطبقاتِ الناشئة وما شكّلته من مفاهيمَ حداثيّة، تصادمتْ مع التراث الجامد والصيغ السياسيّة المقيِّدة للبنية الإقطاعيّة، وكلُّ ذلك شكّل الإطارَ المتينَ لهذه الأفكار. لكنّ هذه الشروط لم تتوفّرْ للتجربة الإسلاميّة، فذهبتْ أفكارًا مزهرةً في أمكانٍ أخرى.

أما بعضُ الحالات، ككتاب سلمان رشدي، وموضوع منع الحجاب في المدارس الرسميّة في فرنسا، فيُدخلنا في نقاشَ حول الإيديولوجيا والسياسة: الإيديولوجيا كعلم أفكار، وما آلت إليه الآن في دلالتها على الجمود الفكريّ، وهو عكسُ جوهرها؛ والسياسة بما هي وسيلةٌ لاستخدام الإيديولوجيا لخدمة مصالح الطبقات أو الدول. الخطر يكمن في أن تتحوّل البنى الفكريّة الحرّة إلى أداةٍ تُسْتَخْدَم خارج سياق وظيفتها الأساسيّة. وهذا ما أدّى إلى اختلالات في مسار تطبيق الأنظمة العلمانيّة، إذ طغت أحيانًا المصالحُ السياسيّة والاقتصاديّة على جوهر الفكرة العلمانيّة. ولكنّ هذه الاختلالات كانت دائمًا في مواجهة حالةٍ ناشئة (مثلاً توسُّع وجود المسلمين في أوروبا). وسيبقى الحوارُ والنضالُ من أجل الدفاع عن القيم العلمانيّة في مواجهة أيّ محاولةٍ للانقلاب عليها سمةً من سمات الأنظمة العلمانيّة.

إنّ مجرّد طرح التضادّ بين العلمنة والدين لا يمكن إلا أن يكون رفض المؤسّسات الدينيّة القبولَ بالآخر المختلف، عقيدةً وفكرًا. فلم نشهدْ حتى الآن، نظريًا وفي الممارسة، قبولاً كاملا للأديان فيما بينها، إذ لكلٍّ منها رؤيةٌ متميّزةٌ إلى «الحياة الصالحة» تحاول فرضَها. وفي أحسن الأحوال تقبل إحداها بالأخرى كفئة غير كاملة الحقوق ـ وهو قبولٌ قسريٌّ يحمل، في جوهره، المعاداةَ أو التكفيرَ أو الرفضَ، ويختزن كَمًا كبيرًا من الرغبة في الغلبة.

❖ ❖ ❖

أخيرًا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ العلمنة ساهمتْ في تطوير الفكر الدينيّ في أوروبا المسيحيّة، وجزئيًا في تجربة الإسلاميين في تركيا، حيث يُرصَد أداءٌ أكثرُ مدنيّةً وعصريّةً حتى نكاد ننسى معه جملةَ الارتكابات الكبيرة لمحاكم التفتيش وسياسات التحريم والتكفير. كما تعيش المجموعاتُ الدينيّة في ظلّ هذه الأنظمة حريّةً كاملةً في ممارسة شعائرها الإيمانيّة، ولا يُنْتَقَصُ من إيمانها شيء، ولا تعدو معاداةُ العلمانيّة إلا أن تكون سلاحًا لاستعادة مجدٍ مفقود.

جنوب لبنان

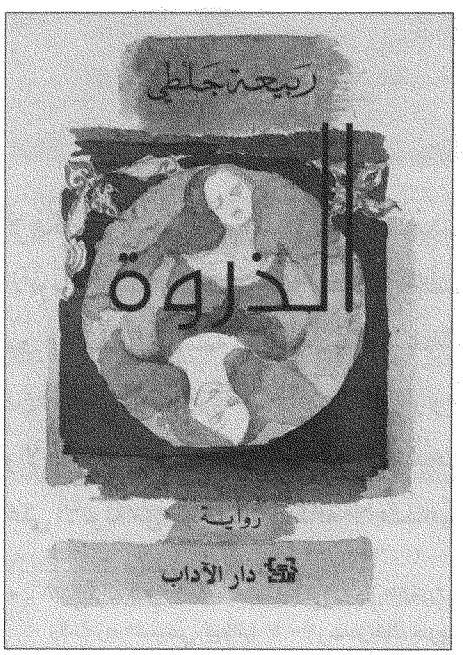

تتناول رواية «الذروة» حيوات خمس نساء يتقاسمن ويتخاصمن عالمًا من الأحلام والأوهام والذكور. رواية حبّ وبوح، تُحيل بمرارة كبيرة على الواقع العربي الذي تتحكّم في أنفاسه سلطة مريضة وهرمة؛ رواية تبحث عن السلام المفقود في النفوس، وعن المناطق المتوحّشة في الروح حيث الشرّ المطلق يرفض الأخوّة.

ربيعة جلطي شاعرة وروائيّة جزائريّة. حائزة دكتوراه دولة في الأدب المغاربيّ المعاصر. تشغل منصب أستاذة محاضرة بالجامعة المركزيّة بالجزائر. صدرتْ لها ستّة دواوين شعريّة وكتاب نثريّ. تُرجمتْ أعمالها إلى لغات عدّة.